الـــــــديروطي

توفي (٩٢١هـ=١٥١٥م)

يعطي الحاكم درساً في الجهاد والكرامة

obeikandl.com

لا يخفى على أحد حالة الهوان والضعف التي وصلت إليها الأمة العربية والإسلامية، وماحل بالمسلمين في هذا العصر من انكسارات وهزائم في معاركهم الحربية والسياسية والفكرية: ومهما قيل عن أسباب هذا الهوان، فإن هناك سببا أساسيا وجوهريا، وهو فقر المجتمعات الإسلامية وخلوها من علماء الدين والرجال الذين لا يخافون إلا الله ولا يهابون قول الحق، أولئك الرجال الذين يعلمون أن الحكم في الإسلام عقد بين متعاقدين، بين الحاكم من جهة وبين الرعية من جهة أخرى، وهو من قبيل التعاون على البر والتقوى.

فالحاكم-كما يراه الإسلام- ليس شخصا مقدسا حاكما بأمره، وليس وارثا للملك ولا مهيمناً على عقائد الناس وقلوبهم، إنه طرف في عقد ليقوم بأعمال الوكالة باسم المجموع.. فهو عقد موثق بالإيمان يجعل على الفريقين التزاما دقيقا يجب عليه تنفيذه والقيام بحقه، ويُلزم الحاكم بإقامة كتاب الله وسنة رسوله، ويلزم الأمة بالسمع والطاعة في المنشط والمكره ما لم يكن عصيانا لأمر الله ونهيه، فإن كان عصيانا فلا سمع ولا طاعة.

وقد نظم القرآن الكريم هذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الآيتين [٥٨, ٥٩ من سورة النساء]، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

نقد الحكام:

يقول الإمام «ابن تيمية»: أن الآية الأولى نزلت في ولاة الأمور -الحكام- عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، فإن خانوا الأمانة سلبت منهم الولاية - أي عزلوا من الحكم.

ونزلت الآية الثانية في الرعية، عليهم أن يؤدوا أمانة الطاعة، إلا أن يؤمروا

بمعصية، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والفيصل الحكم والميزان القسط بين الحاكم والرعية، هو كتاب الله تعالى، وسنة رسوله الكريم، فإذا اختلف بين طرفي الأمانة، ردوا الخلاف إلى الكتاب والسنة ليفصلا بينهما.

وبناء على ذلك فإن من حق المحكومين نقد الحكام إذا أخطؤوا، ومناصحتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتاريخ دولة الإسلام في مجدها كان خير دليل على هذا العقد، فلم يغضب الحاكم العادل من مسائلة الرعية له فهو يؤمن أن هذا من حقهم بل ومن واجبهم، وتعتبر الأمة آثمة إن قصرت في هذا الحق، ولم يتغاف المحكومون عن شيء يرونه تقصير من قبل الحاكم.

وهذه الحادثة تؤكد دور العلماء في الرقابة على الحكام، حدثت في عهد السلطان قنصوة الغوري، طرفاها الشيخ «الديروطي» والسلطان الغوري.

والشيخ هو «شمس الدين الديروطي» من علماء الأزهر، واعظ زاهد، وكان جريئا في الحق، يتعفف عن عطاء السلطان، وكان يعيش من تجارته، توفي بدمياط سنة ٩٢١هـ، له كتاب القاموس في الفقه، وشرح منهاج النووي.

بين الديروطي والسلطان:

أما السلطان فهو «قنصوة بن عبد الله الطاهري الغوري»، سيف الدين الملقب باسم الملك الأشرف، سلطان مصر، بويع بالسلطنة بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٩٠٥هـ، وظل يحكم مصر حتى هزمه السلطان العثماني «سليم الأول» في موقعة مرج دابق، ومات سنة ٩٢٢هـ.

دخل «الشيخ الديروطي» في أحد الأيام مجلس السلطان الغوري، وبادر بإلقاء تحية الإسلام على السلطان، ولم يرد السلطان التحية، هذا الموقف أغضب «الشيخ

الديروطي» الذي تربى في مدرسة الإسلام، فقرر أن يلقن هذا السلطان المتعجرف الذي لم يرد التحية درسا في آداب الإسلام يكون عبرة له ولغيره. قال الديروطي للسلطان: إن لم ترد السلام، فسقت وعزلت.

فقال السلطان: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أضاف: يا شيخ ديروطي، لماذا تهاجمنا على ترك الجهاد، ومقاتلة الأعداء وليس لنا مراكب نجاهد المعتدين عليها؟

فقال الشيخ: هذه حجة واهية، فأنت لديك من المال الكثير، الذي يمكن أن تجهزها به، فلماذا لم تفعل؟ وطال بينهما النقاش، فقال الشيخ: لقد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك، وباعوك من يد إلي يد، ثم مَن الله عليك بالحرية والإسلام، ورقاك إلى أن صرت سلطانا علي الناس؟

وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجح فيه طبيب، ثم تموت، وتكفن، ويحفرون لك قبرا مظلما، ثم يدسون أنفك هذا في التراب، ثم تُبعث عريانا عطشانا جوعانا، ثم توقف بين يدي الحاكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ثم ينادي المنادي:

من كان له حق على الغوري فليحضر، فيحضر خلائق لا يعلم عددها إلا الله.

فتغير وجه السلطان من وقع هذا الكلام عليه وكتم غضبه وغيظه، ولم يجد أمامه من حيلة سوى أن يحاول إسكات الشيخ بالمال والهدايا، اعتقادا منه أن هذا الشيخ يشترى بالمال.

عرض عليه مبلغا من المال هو عشرة آلاف دينار يشتري بها سكوته وصمته على مخازيه، وسلبه حرية الشعب وأمواله، وجبنه عن مواجهة الأعداء.

ولكن هذا الشيخ الذي يجابه السلطان بكلمة حق، محال أن تخدعه عروض الدنيا، أو يغريه بريق الذهب، فردها عليه قائلا: أنا رجل ذو مال، ولا أحتاج إلى

مساعدة أحد، ولكن إن كنت أنت محتاجا لأجل الجهاد، ولأجل تجهيز الجيش للدفاع عن الإسلام، أقرضتك وصبرت عليك.

فبهت السلطان، ولم يدر بما يقول، وهكذا أعز الله الشيخ بالحق، وأذل السلطان المتكبر الذي قهره الديروطي بتقواه وتعففه.

ويغزو السلطان العثماني البلاد، ويستولى على مصر، ويذهب الغوري إلى قاع التاريخ غير مأسوف عليه، ويبقى الشيخ بورعه وزهده وتمسكه بالحق يجهر به دائما فى وجه كل سلطان، فهو لا يخاف إلا الله سبحانه وتعالى.

مكانة العلماء:

يدخل السلطان «سليم الأول» مزهوا بانتصاره إلى القاهرة، ذهب إلى القلعة مقر الحاكم، وجلس هناك مغرورا، طلب القائد المنتصر من أعيان الأمة وعلمائها وقوادها أن يأتوا إلى القلعة لتقديم فروض الطاعة والولاء.

هرع الكثيرون إليه يتزلفون، ينافقون، يقدمون الولاء والطاعة كما يفعلون مع أي حاكم، ولكن «الديروطي» لم يفعل فعلهم، فقد تربى في مدرسة القرآن، وتشرب روح الإسلام ونهل من ينابيع الإيمان الحق، امتنع عن تلبية طلب السلطان، أرسل إليه «سليم الأول» أحد قواده مع مجموعة من الجنود، عَلّ الشيخ يخاف ويأتي معهم، ولكن الرجل الرباني يرفض ويصر على الرفض، فالعلماء لا يذهبون إلى الحكام، وهم يؤتى إليهم ولا يأتون.

اندهش السلطان من موقف هذا الشيخ، الذي يتحدى أوامره، فقرر أن يذهب إليه ليرى مدى قوته، جاء سليم الأول وسط حاشيته وأركان حربه، وكأنه ذاهب إلى معركة حربية.

وصل إلى دار «الديروطي»، فلم يجد حراسًا أو أحدا في انتظاره، أعلموا الشيخ بوصوله، فلم يخرج إليه، ولم ترهبه أبهة الملك وجلال السلطان، دخل سليم عليه داره، فسلم ورد الشيخ التحية، وسأله السلطان: لما لم تأت إلينا يا ديروطي؟

بهدوء يقول الرجل المؤمن: لم نتعود الخروج إلى أحد، بعد صمت يقول سليم الأول: ولكنني أنا السلطان، فيقول الشيخ: إنما الملك لله سبحانه وتعالى ونحن العلماء ورثة الأنبياء، يأتي إلينا الحاكم ولا نذهب إليه!

ويطول الصمت ويشعر السلطان سليم الأول بضآلته أمام هذا الشيخ الذي ظل ثابتا ساكنا لم يرهبه شيء.

فيقول السلطان: يا سيدي.. ألك حاجة نقضيها لك، قبل أن نذهب إلى تركيا؟

ويرد الديروطي بكرامة وعزة وإباء: لسنا في حاجة إلا إلى الله سبحانه وتعالى.

لقد أعزه الإيمان، وأمدته الثقة بالله بالقوة والشجاعة، فلم يفكر فيما يمكن أن يتعرض له من بطش هذا القائد المنتشي بالنصر.

فلا يملك السلطان إلا أن يسلم ويذهب إلى دار الحكم ومن خلفه حاشيته لا يصدقون أن يكون في مصر مثل هذا العالم الذي تحدي السلطان سليم الأول قاهر الجيوش والممالك.

وقبل أن يعود سليم الأول إلى تركيا يوصي واليه علي مصر أن يذهب إلي «الشيخ الديروطي» من حين لآخر يتفقد شؤونه ويحقق مطالبه.

وفي إحدى هذه الزيارات، وكان الوالي يستعد لزيارة السلطان في تركيا، يذهب الوالي إلى دار العالم الجليل ويقول له: إننا أزمعنا الرحيل إلى تركيا، ونحن مقربون إلى السلطان، فهل من حاجة نقضيها لك من سلطان البلاد؟.

ورغم تقدم سنه، فلم يزل الديروطي على تقه وورعه وتمسكه بالحق يقول: إننا مقربون إلى الله أكثر فهل لك أنت حاجة!!

ما أجل القول، وما أعظم الحجة..